اللفظ ومستواه الصوابي
من خلال : « موطئة الفصيح »
لابن الطيب الشرقي (*)

بقلم : د. عبد العلي الودغيري
كلية الآداب ــ الرباط

المقدمة الأولى :
تعريف بـ «موطئة الفصيح»

برزت قضية اللحن بصورة جدية باعتبارها مشكلا يحتاج إلى حل في تاريخ اللغة العربية منذ عصر أبي الأسود الدؤلي، وإن لم يخل العصر السابق لذلك من ملاحظة بعض أعراض هذه الظاهرة.

وقد حاول أبو الأسود وتلاميذه من بعده محاصرة اللحن بما وضعوه من أسس لقواعد النحو وضوابط لاصلاح الخط العربي باكتشاف نقط الاعجام وحركات الشكل. وتوجت هذه الجهود في نهاية الأمر بظهور القاموس اللغوي العربي الشامل لأول مرة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، فوضع بين أيدي متعلمي العربية على اختلاف مستوياتهم قائمة الألفاظ الفصيحة المستعملة في معانيها الصحيحة كما يستعملها العرب الأقحاح أصحاب اللغة. وهكذا تعاونت جهود أصحاب القواميس مع جهود النحاة لتأسيس اللغة الفصحى أي اللغة النموذجية.

ولكن هذه الجهود جميعها لم تستطع إيقاف زحف التغير والتطور اليومي لحياة اللغة العربية التي لم تعد لغة العرب وحدهم، بل أصبحت أيضا لغة لجميع الأجناس البشرية الأعجمية الداخلة تحت لواء الاسلام اذ استظلت بهذا اللواء امبراطورية واسعة الأرجاء، ولا سيما أنه أريد للغة العربية أن تظل لغة جميع المستويات : مستوى الدولة وشؤون الادارة، ومستوى التعليم والفكر والثقافة، ومستوي المعاملات

(*) هو أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقي (أو الشركي) الصنيلي الفاسي (1110 ــ 1170 هـ) أشهر اللغويين والمعجمين المغاربة في عصره، له مؤلفات في مختلف العلوم تزيد عن الستين كتابا ورسالة منها : الحاشية على القاموس المحيط، وشرح الاقتراح في أصول النحو للسيوطي، وشرح كفاية المتحفظ في اللغة لابن الأجدابي، وموطئة الفصيح لموطأة الفصيح..

وهذه الدراسة عبارة عن قسم صغير من الأطروحة الجامعية التي تقدمت بها لنيل دكتوراة الدولى في اللغة العربية من جامعة محمد الخامس (الرباط) تحت عنوان : (ابن الطيب الشركي : حلقة في تاريخ الفكر اللغوي بالمغرب).

العادية في حياة الناس. ولذلك كان من الطبيعي ألا تحافظ اللغة النموذجية على صورتها الصافية النقية في جميع المستويات والبيئات والأعصار، بل إن لغة المثقفين نفسها التي تمثل المستوى الرفيع لاستخدام الفصحى — وقد أصبحت تكتسب بالتعلم — لم تكن لتسلم من الأخطاء في كثير من الأحيان.

ومنذ القرن الثاني الهجري بدأ يظهر في تاريخ التأليف اللغوي عند العرب نوع من الكتب يهتم بتصحيح هذه الأخطاء التي تلاحظ في لغة العامة والخاصة من المثقفين، وقد امتدت هذه الحركة أحيانا لتتناول لغة عامة العامة أو خاصة الخاصة. وانطلاقا من تلك الفترة وامتدادا عبر التاريخ إلى أيامنا هذه، لم تنقطع حركة التصحيح اللغوي عن أداء مهمتها، ولم تتوقف عن مدنا بالكتب والرسائل التي تعالج مشكلتي الفصيح واللحن. ولقد اهتم بعض الدارسين المحدثين بتتبع آثار وأعمال هذه الحركة منذ العهد الأول، وخرجوا بقوائم طويلة فيها أسماء مؤلفات القوم بشرق العالم الاسلامي وغربه، فأغنانا ذلك عن اعادة البحث في الموضوع (1). ولكن الذي يهمنا أن نبرزه هنا على الخصوص هو ما أسهم به في مسار هذه الحركة علماء نسبوا للمغرب الأقصى، سواء ممن ولدوا فيه واستقروا، أم ممن هاجروا إليه واستقروا كذلك. وهو إسهام ليس بالهين كما سنرى.

1. فأول من يعرف له تأليف في الموضوع — حسب ما أعلم — هو أبو العباس أحمد بن عبد الجليل التدميري الأندلسي الأصل الفاسي الدار والوفاة (ت 555 هـ) (2) فقد ذكر له مترجموه اسم شرح على فصيح ثعلب وهو (**التصريح لشرح غريب الفصيح**) (3).

2. وكان أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي ثم السبتي (كان حيا سنة 557 هـ) (4) من أشهر المشتغلين بقضية التصويب اللغوي. فهو صاحب الكتاب المسمى : (**المدخل إلى تقويم اللسان**) الذي تم الآن نشره كاملا على مراحل بتعاون أربعة من الباحثين العرب (5). وهو يهتم بلغة العامة في الأندلس والغرب الاسلامي بصفة عامة.

3. ولابن هشام هذا أيضا كتاب آخر وهو : (**شرح الفصيح**) لأبي العباس ثعلب، حققه أخيرا الدكتور حاتم الضامن (6). ويهتم فيه صاحبه بالاضافة للشرح، ببعض ظواهر اللغة العامية في زمانه.

---

(1) انظر قوائم هذه المؤلفات في : بروكلمان : 211/2 وما بعدها (ط. عربية) — لحن العوام والتطور اللغوي لرمضان عبد التواب ص 66، وما بعدها — لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة لعبد العزيز مطر ص : 57 — حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث لمحمد ضاري حمادي. ص 21 وما بعدها.

(2) ترجمته في : الوعاة : 321/1 — التكملة لابن الأبار : 65/1، (ط. الحسيني) — جذوة ابن القاضي : 138/1 — الأعلام للمراكشي : 68/2.

(3) مخطوط بمكتبة نور العثمانية بتركيا رقم : 3992 (بروكلمان : 211/2).

(4) من مصادر ترجمته : البلغة للفيروزبادي : ص 209 — الوعاة : 48/1 — بروكلمان : 347/5 — الأعلام للزركلي : 212/6 — معجم المؤلفين : 26/9.

(5) نشر قسم منه سنة 1962 بعنوان (باب ما تمثلت به العامة مما وقع في أشعار المتقدمين) باعتناء د. عبد العزيز الأهواني ضمن كتاب : (إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين).
ثم نشر قسم ثان سنة 1966 بعنوان : (الرد على أبي بكر الزبيدي في لحن العامة) باعتناء د. عبد العزيز مطر (مجلة معهد المخطوطات العربية. ج 2 مجلد 12 سنة 1966.
— وفي سنة 1973 نشر بالقاهرة قسم ثالث بعنوان : (الرد على ابن مكي في تثقيف اللسان) باعتناء د. عبد العزيز مطر أيضا.
— وأخيرا نشر د. حاتم الضامن من العراق الأبواب الثلاثة المتبقية منه مسلسلة في مجلة (المورد) ابتداء من ع 2 م 10 س : 1981. وبذلك تم اخراج الكتاب كاملا.

(6) أشار هذا الباحث في مجلة (المورد) ع 2 مجلد 10 س : 1981 إلى أنه انتهى من تحقيقه. وتوجد منه نسخة خطية بالخزانة الحسنية بالرباط رقم : 1944 وأخرى تحت رقم : 7539.

4. ولابي الحكم مالك بن المرحل السبتي (ت 699 هـ) الذي — سوف نتحدث عنه فيما بعد — اهتمام واسع بهذا النوع من الموضوعات، إذ ذكر له مترجموه من التأليف : (**نظم اختصار اصلاح المنطق**[7]).

5. **ونظم الثلث الأول من كتاب (أدب الكاتب)** لابن قتيبة بعد ترتيبه. وهذان كتابان لا نعرف عنهما سوى أنهما مذكوران ضمن مؤلفاته الأخرى عند من ترجم له.

6. وسنتحدث عن (**موطأة الفصيح**) التي شرحها ابن الطيب الشرقي وهي منظومة في حوالي 1500 بيت لكتاب ثعلب.

7. ولأبي عبد الله محمد بن علي بن هانىء اللخمي السبتي (ت 733 هـ) [8] ترتيب واختصار لكتاب (المدخل إلى تقويم اللسان) لابن هشام الآنف ذكره، سماه السيوطي : (لحن العامة) في بغية الوعاة. وهذا الكتاب هو المعروف بـ (**انشاد الضوال وارشاد السؤال**) ويعتقد لحد الآن أنه مفقود. وقد قام باختصاره الشاعر الأديب اللغوي الأندلسي أبو جعفر أحمد بن علي ابن محمد بن خاتمة الأنصاري (ت 770 هـ) [9] في كتاب آخر بعنوان : (ايراد الآل من إنشاد الضوال وارشاد السؤال) وتوجد من هذا المختصر نسخة خطية بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (1248 ج). ثم اختصر شخص مجهول هذا المختصر نفسه في كتاب قام بنشره المستشرق الفرنسي (كولان) بمجلة (هسبريس) [10].

8. ولمحمد الصغير بن محمد الافراني (أو اليفرني) المتوفى بعد 1150 هـ صاحب (روضة التعريف) [11] رسالة في نوع خاص من اللحن وهو اللحن الذي يقع في الحديث النبوي الشريف، سماها : (فتح المغيث بحكم اللحن في الحديث) [12] تقع في 15 صفحة، والغرض من الكتابة في هذا الموضوع — كما يشرح في المقدمة — هو اجابة السائل الذي يسأل : هل هنالك رخصة يترخص بها لمن يلحن في حديث نبوي ولا سيما إذا كان لا يتقن العربية ؟ ولذلك قسمت الرسالة إلى مقدمة وخاتمة وثلاثة فصول. فتحدث في المقدمة عن معنى اللحن في اللغة والفرق بينه وبين التصحيف والتحريف، وتحدث في الفصل الأول عن تقسيم أنواع اللحن الذي يقع في الحديث النبوي. وفي الثاني عن حكم اللاحن فيه. وفي الثالث عمن رخص من العلماء باللحن في الحديث، وجعل الخاتمة للجواب عن بعض الاشكالات الواردة حول كيفية قراءة الحديث.

9. ولمحمد بن الطيب الشرقي عملان معروفان في الموضوع : أولهما : (شرح درة الغواص للحريري) وقد أوجزنا الحديث عنه في القسم الأول من رسالتنا هذه.

10. وثانيهما : شرح لمنظومة ابن المرحل المسماة (موطأة الفصيح) الآنفة الذكر. وهذا الشرح

---

(7) (مختصر إصلاح المنطق) الذي شرحه ابن المرحل هو من عمل أبي القاسم الحسني بن علي المعروف بالوزير المغربي (ولد سنة 370 هـ). وهو الكتاب الذي أهدي للمعري فأجاب عنه برسالة الاغريطي. (انظر : وفيات الأعيان : 172/2 — برناج الوادياشي : ص 139 في ترجمة ابن المرحل). وقد يصحف (ابن المغربي) في بعض الكتب إلى (ابن العربي).

(8) من مصادر ومراجع ترجمته : بلغة الأمنية : 23 — بغية الوعاة : 192/1 — بروكلمان : 348/5.

(9) ترجمته في : الاحاطة : 239/1.

(10) مجلة هسبريس (HESPERIS) م 12 س 1931. وانظر : لحن العامة والتطور اللغوي (ص 274) للدكتور رمضان عبد التواب. وفيه نفى وجود كتاب ابن خاتمة عكس ما ذكرنا، ولعل السبب أنه لم يطلع على نسخة الرباط.

(11) انظر ترجمته في : التقاط الدرر : ص 438 — دليل مؤرخ المغرب الأقصى 152/1 — معجم المحدثين لابن عبد الله ص 36.

(12) منها نسخة خطية بالخزانة العامة بالرباط محفوظة تحت رقم : 88 ج ضمن مجموع من ص 144 إلى ص 159.

هو المسمى : (موطئة الفصيح لموطأة الفصيح). وهو موضوع كلامنا في هذا الباب.

11. ولأبي حفص حمدون بن عبد الرحمان بن الحاج السلمي الفاسي (ت 1232 هـ) [13] : (شرح على نظم ابن المرحل لفصيح ثعلب) ذكره له ولده محمد الطالب ابن الحاج (ت 1274 هـ) في كناشته المخطوطة [14] في جملة مؤلفاته. وقال عنه إنه « لم يكمل ».

12. ونسب الدكتور محمد ابن شقرون لأبي بكر الشريف الحسني الادريسي السبتي [15] (ت 809 هـ) (**نظم فصيح ثعلب و شرحه**) وقال انه مخطوط بالخزانة العامة بالرباط [16]. و لم أقف عليه.

فصيح ثعلب :

تبين من هذه القائمة التي استطعنا جمعها من المؤلفات والأعمال التي أسهم بها المغاربة في حركة التصويب اللغوي، أن القسط الأكبر منها كان يدور حول كتاب (اختيار الفصيح) [17] لأبي العباس ثعلب (ت 291 هـ) وإما بشرحه وإما بنظمه أو شرح نظمه.

والمتأمل في الحركة التصويبية منذ ظهور بواكيرها يجد أنها سارت في اتجاهين اثنين : اتجاه ينطلق من جمع طائفة من الأخطاء الشائعة في استعمالات الخواص أو العوام من المثقفين وغيرهم والعمل على تصحيحها وردها إلى أصلها الفصيح والتنبيه على الوجوه السليمة للاستعمال، وأحسن الأمثلة التي وصلت إلينا من كتب هذا الاتجاه : كتاب (لحن العوام) لأبي بكر الزبيدي و (المدخل إلى تقويم اللسان) لابن هشام السبتي، و (تقويم اللسان) لابن الجوزي و (درة الخواص في أوهام الخواص) للحريري.

وأما الاتجاه الثاني فكان يريد الوصول إلى الغاية نفسها التي يجري وراءها الاتجاه الأول ولكن بطريقة معاكسة : فهو لا ينطلق من الاستعمال الفاسد ليصل إلى الصواب، بل ينطلق من الصواب ليصل إلى تصحيح الفاسد، فهو يضع المثال الذي « يصل به قارؤوه إلى علم جميع ما تلحن فيه العامة » كما يقول ابن درستويه [18]. وأبو العباس ثعلب يقول في خاتمة كتابه الذي يعد من نماذج هذا الاتجاه: « هذا كتاب اختصرناه وأقللناه لتخف المؤنة فيه على متعلمه الصغير والكبير وليعرف به فصيح الكلام ». فالذين اختاروا هذا المسلك في تعلم العربية الجيدة — وهو المسلك الذي تؤيده الطرق التربوية الحديثة — كابن السكيت (ت 244 هـ) في (اصلاح المنطق) وأبي عمر الزاهد المعروف بغلام ثعلب (ت 345 هـ) في (فائت الفصيح) بالاضافة لثعلب نفسه والجماعة الأخرى التي سارت على نهجه، آثروا أن يضعوا بين أيدي الناس منتخبات من الكلام العربي الفصيح الذي تشتد الحاجة إليه، وعن طريق حفظه

(13) انظر ترجمته في : التبوغ : 296/1 — دليل مؤرخ المغرب الأقصى : 214/1 — معجم المحدثين لابن عبد الله ص 19. وقد ذكر أنه توفي سنة 1239 هـ وترجم له مؤخرا الأستاذ أحمد العراقي في مقدمة تحقيقه لديوانه المسمى (النوافح العالية في الأمداح السليمانية) وقد قدم هذا التحقيق لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بفاس (1981 م).

(14) كناشة محمد الطالب ابن الحاج مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم : 2875 ز. اللوحة 14.

(15) ترجمته في : بلغة الأمنية ص : 49.

(16) انظر مظاهر الثقافة المغربية ص : 209. وقد أخبرني فيما بعد أنه وقف عليه ضمن المخطوطات المقدمة لجائزة الحسن الثاني.

(17) نشر الكتاب لأول مرة في ليبسك سنة 1876 م بعناية المستشرق (Von. j. Barth). وطبع في مجموعة الطرف الأدبية لطلاب العلوم العربية بمصر عام 1325 هـ. ثم طبع طبعات أخرى مع بعض شروحه. ومن نسخه المخطبة بالمغرب نسخة الخزانة الحسنية بالرباط رقم : 841 وهي برواية أبي علي القالي عن المطرزي وثعلبويه وابن الأنباري، ونسخة الخزانة الصبيحية بسلا برواية أبي موسى الجزولي رقم : 293. هذا وقد قام السيد عاطف سيد حسن مذكور بتحقيقه ودراسته وتقدم به لنيل الماجستير من كلية آداب القاهرة سنة 1974.

(18) انظر مقدمة (تصحيح الفصيح).

والعلم به يصل المرء إلى اصلاح لسانه وخطئه.

ومهما يكن فإن الاتجاهان معا يلتقيان في نقطة تماس واحدة وهي : اصلاح المنطق وتصويب الاستعمال، وتوجيه المتكلم والكاتب، وذلك على نحو ما يوضحه الرسم التقريبي التالي :

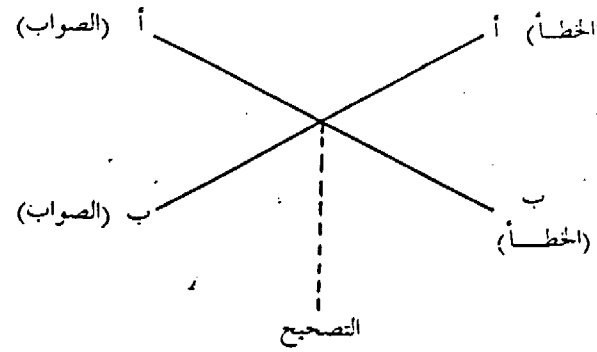

وقد احتل كتاب ثعلب الذي قلنا انه يمثل واحدا من الاتجاهين المذكورين، مكانة مرموقة، ومنزلة عظيمة بين طلبة العربية وشداتها، حتى أصبح في مقام (الكتاب المدرسي) الأول بين كتب تعليم اللغة في شرق العالم العربي وغربه. وقد نوه به ابن درستويه فقال : « قد بلغ الغاية من البراعة وجاوز النهاية في التأدب. ومن لم يحفظه فهو مقصر [19] على كل غرض ومنحط عن كل شرف [20] ». وقال أبو سهل محمد بن علي الهروي : ان « جمهورالناس الذين يؤدبون أولادهم ومن يعنون بأمرهم يحفظونهم كتاب الفصيح المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني المعروف بثعلب رحمه الله تعالى قبل غيره من كتب اللغة، لما فيه من الألفاظ السهلة المستعملة، ولأن العامة تخطىء في كثير منها [21] ». فقد كان حسن اختصاره الذي يسهل حفظه، واختياره لأبسط العبارات التي قد تكون مظنة الخطأ في الاستعمال الشائع، هما من أسباب شهرته ومكانته لا عند المشارقة وحدهم بل عند المغاربة أيضا كما بينا من قبل [22].

إلا أن الاهتمام بهذا الكتاب لم يكن دائما مصدره نظرة الرضى والارتياح، بل أحيانا كان الاهتمام به نتيجة ما لوحظ فيه من نقص وما اعتوره من عيوب. فابن درستويه الذي قال فيه تلك الشهادة الثمينة هو نفسه الذي تصدى لتصحيح أخطاء ثعلب وانتقاد منهجه حتى إنه جعل عنوان كتابه : (تصحيح الفصيح)، ومما قاله في انتقاده : « ثم كان مما أغفله منه أيضا أنه لم يفسر ما ذكره فيه من الغريب ولم يوضح معانيه واعرابه، فاحتاج من تَحَفظه إلى التعب في السؤال عن ذلك »[23]. ومثل ذلك أيضا قال أبو سهل الهروي بعد شهادته السابقة : « وكان قد عرّى أكثر فصوله من التفسير ». فكثير من العلماء قد لاحظوا أن شدة اختصار الكتاب أدت إلى إهمال تفسير ما فيه من ألفاظ غريبة، كما لاحظوا خلوه من الشواهد إلا ما ندر واقتصاره على أوجه معينة من فصاحة اللفظ واهمال وجوه أخرى، فضلا عن اهمال كلمات يكثر استعمالها ويكثر بالتالي خطأ العامة فيها. وهذا ما دفع أبا عمر الزاهد إلى وضع كتابه الذي سماه : (فائت الفصيح) مستدركا ما فات شيخه أبا

(19) كذا. وفي القواميس : قصر عن كذا.

(20) مقدمة (تصحيح الفصيح).

(21) انظر مقدمة (التلويح في شرح الفصيح) للهروي.

(22) مما تجدر الاشارة إليه هنا أن النسخة المحفوظة بالخزانة الصبيحية بسلا من كتاب (اختيار الفصيح) تحت رقم : 293 مجموع. تحتفظ بسند قديم من أسانيد المغاربة في رواية الكتاب، وهو سند العلامة النحوي المغربي أبي موسى الجزولي (ت : 606 أو 607 هـ) الذي يتصل بسند شيخه اللغوي الشهير أبي محمد عبد الله بن بري، صاحب حواشي الصحاح، وهذا نص السند : « أخبرنا أبو محمد عبد الله بن بري بن عبد الجبار ابن بري المقدسي — [و] قرأته] عليه — عن أبي طالب عبد الجبار بن محمد المعافري عن الحافظ أبي الحسن سعيد الخير محمد بن محمد بن سهل الأنصاري عن أبي سعيد محمد ابن محمد المطرزي الأصبهاني عن أبي الحسن علي بن الحسن بن كيسان قال : قال أبو العباس أحمد بن يحيى بن سيار النحوي — وقرأته عليه — هذا كتاب اختيار فصيح الكلام مما يجري في كلام الناس... ».

(23) مقدمة (تصحيح الفصيح).

العباس. ودفع البغدادي إلى تأليف ما سماه : (ذيل الفصيح). وفعل مثلهما آخرون. فأضافوا واستدركوا ونبهوا وحققوا وشرحوا [24].

على أن أخطر ما وجه لكتاب ثعلب من النقد هو ما جاء به أبو إسحاق الزجاج الذي خطأه في مسائل عديدة في مناظرة شهيرة جرت بينه وبين المؤلف حتى قيل بعدها إن أبا العباس أصبح ينكر نسبة الكتاب إليه وأنه لم يؤخذ عنه بعد ذلك [25]. وبعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك فزعم أن الكتاب من تأليف الحسن بن داود الرقي فأغار عليه ثعلب وادعاه لنفسه، أو أنه مسروق من إصلاح المنطق لابن السكيت [26]. وقد كان ابن درستويه ينتقد بشدة بعض المعايير التي استعملها صاحب (الفصيح) في اختياره الأوجه التي اختارها من كلام العرب. وهو ما سنتحدث عنه في موضع آخر من الباب التالي من هذا القسم. ولكن هذا وغيره مما اعتقده الناس في كتاب ثعلب لم يقف في وجه انتشاره بل ربما كان عاملا مساعدا على ذيوع صيته ونفاق بضاعته عكس ما أراده المنتقدون.

منظومة ابن المرحل :

يعتبر أبو الحكم مالك بن عبد الرحمان بن علي الشهير بابن المرحل السبتي [27] (604 ــ 699 هـ) من أبرز شعراء وأدباء المغرب الأقصى في العصر المريني، وله بالاضافة إلى الابداع الشعري ولع بنظم الكتب العلمية في مطولات وأراجيز كثيرة، وإلى جانب اهتمامه الأدبي، له مشاركة في بعض العلوم ولا سيما العربية. وهو معدود ضمن تلاميذ أبي علي الشلوبين النحوي الأندلسي الشهير. وممن تتلمذ عليه أبو حيان النحوي وأبو العباس المقري صاحب الأزهار. وليس المقام هنا مقام التعريف به مطولا، ولا مقام الحديث عن مؤلفاته الكثيرة، فهي مذكورة في مصادر ترجمته التي أحلنا عليها، وإنما يهمنا أن نتوقف قليلا عند ارجوزته المنظومة التي سماها : (موطأة الفصيح) [28] ــ بضم الميم وفتح الواو والطاء المشددة ــ وأولها :

حمد الالاه واجب لذاتـــــــــه
وشكـــــره على عـــــلا هباتـــــه

(24) انظر طائفة من هذه الشروح وغيرها حول كتاب ثعلب في كشف الظنون : 1272/2. وبروكلمان : 211/2.
(25) انظر (الأشباه والنظائر) في النحو للسيوطي : 206/4 وما بعدها.
(26) انظر بروكلمان : 211/2.
(27) انظر من مصادر ومراجع ترجمته ــ القسم الثاني من صلة الصلة لابن الزبير (قسم الغرباء) الذي نشره د. محمد ابن شريفة بآخر القسم الثاني من السفر الثامن من الذيل والتكملة ص : 527 ــ برنامج الوادي آشي : 139 ــ الاحاطة : 480/1 ــ غاية النهاية في طبقات القراء : 36/2 ــ بغية الوعاة : 271/2 ــ جذوة الاقتباس : 327/1 ــ أزهار الرياض : 346/4 ــ 62/5 وقد ترجم له ابن الطيب الشرقي في آخر (موطئة الفصيح) ترجمة موسعة جلها وارد عند ابن القاضي في الجذوة ــ وانظر : الاكليل القادري : 52 ــ وسلوة الأنفاس : 99/3 ــ النبوغ : 197/1 ــ مالك ابن المرحل لعبد الله كنون ــ مظاهر الثقافة المغربية : 59 ــ الدراسات اللغوية بالأندلس للطيار : 142.
(28) طبعت هذه المنظومة بالمطبعة الفاسية ضمن مجموع المتون العلمية، ومنها نسخ خطية متعددة بخزائن المغرب منها نسخ الخزانة الحسنية ذات الأرقام : 10298 ــ 841 ــ 6031 ــ 6618 ــ 1625 ــ 7425 ــ ونسخة بالخزانة العامة بالرباط رقم : 1037 د وأخرى رقم : 1639 د. ونسخة بالخزانة الصبيحية بسلا رقم : 3911. هذا فضلا عن النسخ الأخرى الموجودة « خارج المغرب كنسخة الظاهرية رقم : 7625 (مجموع) ونسخة القاهرة التي ذكرها بروكلمان (210/2) تحت رقم ثاني : 212/2. وقد ذكر صاحب (نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا) مجلد 1 ص 179 أن لابن المرحل منظومة مخطوطة بمكتبة نور عثمانية بمدينة اسطنبول تحت رقم : 4485 وذكر أن عنوانها (الصبيح في نظم الفصيح) وأن أولها :

حمد الالاه واجب لذاته ... وشكره على علا هباته

فعلم بذلك أنها هي (موطأة الفصيح) التي نتحدث عنها.

وهي في الواقع ليست مجرد نظم لكتاب ثعلب، إذ تضمنت أيضا بعض الشرح لكثير من مفرداته. وقد ألم الناظم في الأبيات الأولى بذكر ما صنعه في أرجوزته فقال :

وبعد هذا، فسرى في خاطري
من غير رأي نادب أو آمر
أن أنظم (الفصيح) في سلوك
من رجز مهذب مسبوك
وبعض ما لابد من تفسيره
وشرحه والقول في تقديره
من غير أن أعدو[29] ذاك المعنى
واللفظ إلا لاضطرار عنّا
فالمرء قد تنابه الضرورة
فتصبح النفس بها مقهورة

فهو يذكر أنه سوف يفسر ما لابد من تفسيره مع اختصار لا يتجاوز به المعنى واللفظ المذكورين إلا نادرا. أي أنه لن يتجاوز ما نص عليه ثعلب من أوجه الفصيح في لفظ من الألفاظ ولن يتوسع بالخوض في الأقوال والخلافات إلا عند الضرورة. ولنقارن مقارنة بسيطة سريعة بين قطعة نثرية من كتاب ثعلب وبين ما يقابلها في منظومة ابن المرحل لنلمس الطريقة المختصرة التي استعملها الناظم في الشرح :

يقول صاحب (الفصيح) في (باب فعلت بكسر العين) :

« تقول : قَضِمت الدابةُ شعيرها تَقضمه قضما، وكذلك بلِعت الشيء أبلعه، وسرِطته أسرَطه، وزرِدته أزردَه. ولقِمت ألقَم، وجرِعت الماء أجرَعه، ومَسِست الشيء أمَس، وشَمِمت أشم، وعَضِضت أعض، وغَصصت أغص... »

وقال ابن المرحل ناظما وشارحا لهذا الكلام :

قد قَضِمَتْ شعيرَها الحميرُ
أي أكلت، وأكلُها تيسير
وأصل ذاك الأكل بالمقدم
والشفتين وبأسنان الفم
والخضمُ أكل الشيء بالأضراس
والفم أجمع كأكل الناس
وقد بلعت وسرِطت مثله
لكنه فيما يلين أكله
وقد زردت مثله في سرعة
وقد لقمت لست تعني بلعه
وقد جرعت جرعة من ماء
بلعتها كذاك في الصهباء
وقد مست : وهو لمس باليد
وقد شممت ريحه من بعد
وقد عضضت أي شددت بفم
أو بيد أو بواها فاعلم

فأنت ترى أنه شرح عشرة ألفاظ ونظمها في ثمانية أبيات، وأن هذا الشرح قاموسي ترادفي في الغالب،على أنه قد يضطر أحيانا إلى تضمين بعض الشواهد الشعرية الواردة في كتاب (الفصيح) مع تغيير ما تقتضيه الضرورة في الأبيات المضمنة. ومثال ذلك نظمه لهذه الفقرة من كلام ثعلب التي يقول فيها : « وزَكِنتُ منك كذا وكذا أزْكَن : أي علمت. وينشد هذا البيت :

ولن يراجع قلبي حُبُّهم أبدا
زَكِنْتُ من بعضهم مثل الذي زَكِنُوا

فقد نظمها ابن المرحل مع تضمين البيت الشاهد فقال :

(29) وفي بعض النسخ : (أعزو).

وقـد زكـنتُ أي ظنـنت ظنـا
وقيـل خمّـنتُ، وقيـل المعنـى :
علـمت، ثم أنشدوا يـا صاحبـي
يتـا رووه لابـن أم صاحب : (30)
يقـول لي قـوم تـلّ بعدهـم
ولـن يراجـع الفـؤاد ودهـم
زكـنت مـن أمرهـم مـا زكـنوا
فأمرهـم لمثـل أمـري بَيِّـن.

شرح ابن الطيب :

هذه المنظومة المُرَحِّلِيَّة اذن هي التي قام ابن الطيب الشرقي بشرحها في كتاب ضخم عنوانه : (موطئة الفصيح لموطأة الفصيح). وكان هو أول شرح يوضع عليها، وبعده وضع حمدون ابن الحاج شرحا اخر على نحو ما مر لكنه لم يصل إلينا.

وليس في النسخ الخطية الموجودة من هذا الكتاب الذي لم يطبع بعد ــ كأغلب آثار ابن الطيب ــ ما يدلنا على تاريخ تأليفه بكيفية مضبوطة، إلا أنه من الثابت أن المؤلف قد حمله معه خلال رحلته الأولى التي قام بها إلى المشرق بقصد الحج سنة 1139 هـ. مما يدل صراحة على أنه ألف قبل هذا التاريخ.

وفي الرحلة التي كتبها ابن الطيب بعد عودته من الحج يتردد ذكر (الموطئة) في كثير من المناسبات :

ــ فقد ذكرها مرة وهو يتحدث عن شوقه لزيارة الحرمين الشريفين فقال : « وكان هيجان شديد شوقي الذي لا يَنْحلُّ، وروجان قديد توقي الذي لا يُنْحى نحوه ولا يُنْحَلُّ، زمنَ شرحي لنظم فصيح ثعلب لمالك بن المرحل. فكنت كلما مر بي ذكر الحرام أو الاحرام أضرم نار الأشواق بين الجوانح غاية الاضرام... » ثم أورد قطعة شعرية مما تضمنته الموطئة في البوح بهذا الشوق أولها :

ألا ليت شعري هل أرى البيت معلما ؟
وهل أرِدَنْ يوما على الري زمزما (31)؟

ــ وذكر في موضع ثان قصيدة صاحبه أبي العباس البكوري التي مدحه بها وهو راحل لأداء الحج، وقد تضمنت خمسة أبيات فيها أسماء بعض مؤلفاته منها هذا البيت :

سلـوه على (نظـم الفصيـح) لثعـلب
يريكم له شرحا به الشرق يخجـل (32)

فعلق ابن الطيب على تلك الأبيات بقوله :

« قلت : في قوله : (سلوه الأبيات الخمسة...) تلميح إلى ذكر بعض مؤلفاتي، وتلويح بشيء من مصنفاتي. فأشار بالبيت الأول إلى شرحي لنظم مالك ابن المرحل الذي لبس من حلل البلاغة كل وشي مُرَحَّل. وهو شرح حافل سميته : (**موطئة الفصيح لموطأة الفصيح**). وقد بالغ أصحابنا في الثناء عليه من الآداب ما هو جائز نسبته إليه. وسيأتي بعض أقوالهم البديعة الرائقة في مدح ذلك الكتاب والثناء على معانيه الفائقة (33) ».

وفعلا لقد تحدث ابن الطيب في مواضع متفرقة من رحلته عمن قرظ الكتاب وأثنى عليه من علماء المشرق والمغرب، ونحن أشرنا لذلك في ثنايا القسم الأول من هذا البحث. فقد قرظه : أبو عبد

(30) المقصود هو : قعنب بن أم صاحب الفزاري.
(31) الرحلة : ل : 20.
(32) نفسه : ل : 27.
(33) نفسه : ل : 27.

الله محمد بن عبد الله الفيلالي نزيل الحرمين وكتب عليه نحوا من خمس أوراق (34)، وأبو زيد القاضي عبد الرحمان المالكي المحلي المصري (35)، وأبو العباس أحمد العماوي المالكي الأزهري (36)، وأبو عبد الله محمد بن علي المعروف بابن الأصرم الذي لقيه بالديار الليبية (37). واعتناء ابن الطيب بتقريظات هؤلاء العلماء وغيرهم دليل على اعتزازه بالكتاب وتفاخره بما صنعه فيه، ولذلك فقد حمله معه إلى المشرق في رحلة حجه، وغايته أن يعرف بنفسه من خلاله. فالكتاب خير من يعرف بصاحبه كما يقال.

ولم يهتم الرجل بذكر كتابه في (الرحلة) دون سواه، بل كان أيضا يحيل عليه في بقية مؤلفاته كشرح الكفاية (38) وفيض الانشراح (39) والعقود النظيمة (40) واضاءة الراموس (41) وغيرها. إلا أن الناس مع ذلك لم يولوه في القديم ولا في الحديث من العناية ما كان يتمناه له صاحبه، وهو في الحقيقة أهل لكل عناية واهتمام، وحبذا لو وجد من يعمل على تحقيقه ونشره.

مخطوطاته :

توجد من هذا الكتاب حسب علمي النسخ الخطية التالية :

1. نسخة الخزانة الزيدانية الموجودة حاليا ضمن محتويات الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : (1563 ز). وهي في 559 صفحة من القطع الكبير. في كل صفحة 25 سطرا. وخطها مغربي جيد إلا أنها كثيرة البياض ولا سيما في الصفحات الأولى، وأهم من ذلك أنها ناقصة. فهي عبارة عن الجزء الأول تنتهي بشرح (باب ما أوله المضموم).

2. نسخة خاصة في ملك الأستاذ محمد المنوني (ضمن مجموع) وقد تفضل مشكورا فأعارها إلي لمدة. وهي عبارة عن قطعة من أول الكتاب في تسعين ورقة من القطع المتوسط، وتنتهي بشرح (باب فعلت بكسر العين) وهو الباب الثاني من أبواب الأصل المشروح.

من خصائص هذه النسخة أنها مكتوبة بخط مغربي دقيق هو خط العلامة صالح بن محمد الغلاني (ت 1218 هـ) وأنها سالمة من البياض.

3. نسخة دار الكتب المصرية رقم : 5010 هـ في 340 ورقة. وهي عبارة عن الجزء الأول ينتهي عند أول (باب المفتوح من الأسماء)،

من خصائص هذه النسخة أنها مكتوبة بخط رفيق ابن الطيب في رحلة الحج وتلميذه محمد بن الخياط ابن جيجة الفاسي في أوائل رمضان من سنة 1144 هـ (42). فهي على هذا أقدم النسخ الموجودة.

4. نسخة أخرى بدار الكتب المصرية رقم : 179 وهي عبارة عن الجزء الأول (43).

5. نسخة أخرى بدار الكتب المصرية رقم : (15 ش) مكتوبة بخط علي بن محمد الجزائري سنة

(34) نفسه : ل : 91.
(35) نفسه : ل : 116.
(36) نفسه : ل : 117.
(37) نفسه : ل : 124.
(38) انظر ص : 2 ــ 3 ــ 6 ؛ 21 ــ 24 ــ 26 ــ منه.
(39) انظر ص : 4 ــ 10 ــ 48 ــ 50 منه.
(40) انظر ص : 93 ــ 100 ــ 103 ــ 109 منه. (مخطوط تطوان).
(41) انظر : 16/1 ــ 218 ــ 37/2 ــ 53 ــ 70 ــ 129 (مطبوع).
(42) انظر : (نشرة بالمخطوطات التي اقتنتها الدار من سنة 1936 إلى 1955) لفؤاد سيد : 143/3.
(43) انظر فهرس الكتب العربية الموجودة بالدار لغاية سبتمبر 1925 (42/2).

1301 هـ. تامة (44).

6. نسخة المرحوم خير الدين الزركلي صاحب كتاب (الاعلام) (45) وتوجد حاليا في مكتبة جامعة الرياض بالمملكة العربية السعودية تحت رقم (2991 ز). وهي تامة في جزئين كبيرين (الأول في 625 صفحة والثاني في 539 صفحة). وقع الفراغ من كتابتها سنة 1358 هـ بخط شرقي جميل هو خط محمد بن أحمد الوشلي اليمني الذي استنسخها للشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي. أما الأصل الذي نسخت عنه فهو نسخة دار الكتب المصرية المذكورة أعلاه تحت رقم (15 ش).

هذه هي النسخ التي علمت أنها موجودة من كتاب ابن الطيب المتحدث عنه. وقد اعتمدت في إعداد هذه الدراسة على نسخة الزيدانية التي أرمز لها بحرف (ز) ونسخة المنوني التي أرمز لها بحرف (م) ونسخة السعودية التي أرمز لها بحرف (س).

الموضوع والبنية :

يتحدث ابن الطيب في مقدمة هذا الكتاب الذي تبلغ صفحاته حسب النسخة السعودية أربعا وستين ومئة وألف (1164) صفحة، عن حافزه على التأليف وطريقته في الشرح وغير ذلك من الأغراض الواجب معرفتها فيقول :

« فهذه تحريرات أَبْرَزَتْ إبريزها يد الأنظار، وتقريرات تُقِر بسَبْك نُضارها لُدُّ (46) النظـار، ونفائس تطرب النفوس، وتتنافس في تحصيلها رؤوس النحارير، ونحارير الرؤوس، وترتقي أدراج دقائقها في كل ساعة المفارقُ والرؤوس، حليت بها جيد (نظم الفصيح)، وأودغتها كل لفظ رائق ومعنى فسيح، وأوضحت فيها مشكلات حارت فيها العقول، وفتحت مقفلات ترددت فيها النقول. ولم أكن ممن ديدنه التقليد لأحد من البشر.

ولست بامعـــة في الرجـــال
أسائـــل هـــذا وذا مـــا الخبر

ولكن أدور مع الحق حيث ما دار، وأتصف بالانصاف بتوفيق الله تعالى لأنه منار الفهم الذي عليه المدار. ولست ممن يرى لتقدم الزمان فضيلة أو يهتضم المتأخر في حقيرة أو جليلة. ولكن أقول ما قال المبرد في كامله وهو القائل المحق : (ليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحدثانـه (47) يهتضم المصيب، ولكن يُعْطَى كل ما يستحقه)، وكما قال الامام ابن مالك رضي الله عنه في الخطبة التسهيلية : (وإذا كانت العلوم منحا إلاهية ومذاهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين).

وقد حققت القول في كل مسألة من المسائل، ولم أكن ممن يشمله قول القائل :

يقولـــون أقـــوالا ولا يعلمـــونها
ولو قيل هاتـوا حققـوا لم يحققـوا

ووشحت عطفه بوشاح الاعراب، **فاستغنت ألفاظه عن الايضاح والاعراب. ولم أدع تركيبا إلا**

(44) نفسه.

(45) كنت قد وقفت في (الاعلام) للزركلي (67/7) على قوله : « وموطئة الفصيح لموطأة الفصيح — خ — بجلدان عندي ». فبحثت عن خزانة الزركلي حتى علمت أنها أصبحت ضمن محتويات مكتبة جامعة الرياض وأشكر الأستاذ محمد العربي الخطابي الذي ساعدني حتى حصلت على نسخة مصورة منها.

(46) كذا في (م) وفي (س) : (لدا) وفي (ز) بياض مكان الكلمة. واللُّد جمع ألد وهو الخصم.

(47) كذا. وفي الكامل للمبرد 29/1 : « ولا لحدثان عهد ».

أوضحت معناه، وبينت مبناه، ولم أخله من النصوص والشواهد. وربما قلدته من جوهر الآداب أسنى القلائد، لأنه قد يشير لحكم أدبية ويستدعي أمثالا عربية، فنلم ببعض ما قيل في ذلك، ونقتصد في سلوك تلك المسالك. وإذا أنشد شاهدا بيّنا غريبه وأوضحنا بعيده وقريبه. وإذا ألم بأحد عيّنا كنيته واسمه، وبينا في التعريف به حالته ولقبه وَوَسْمه. وأوردنا ما له من الأخبار العجيبة وقصدنا من مستحسنها بديعه وعجيبه، إحماضا لسائمة العقول والأبصار، وتنشيطا لها بالانتقال من مضمار إلى مضمار. وإذا أعاد لفظا عدنا لتفسيره، ولم نكتف بما مر من تقريره. وننوع العبارت لتنوع الاعتبارات :

لابـــدع ان وافى بغـــيث صيّب
وأتى بكـــل شذا وعـــرف طـــيب
والخـــصّ بالحمـــد الكـــثير فإنـــه
نَجْرٌ (48)اشتقاق محمد بـن الطـيب »

ويقول :

« مع كون هذا النظم لم تذلل صعابه، ولم تسلك فجاجه ولا شعابه. ولا طمثه قبلي إنس ولا جان. ولا غاص غيري في لجة بحره لاستخراج ما فيه من اللؤلؤ والمرجان. بل بقي روضا أنفا، وتمنع لطالبيه نخوة وأنفا، ولأجل انفرادي بفض ختامه، وسبقي (49) لافتضاض عذرته، وإزالة لثامه، كنت وإن سُبقت (50) كمن وضع، وغدوت وإن نقلت كمن اخترع، فأصبح لؤلؤه المكنون وجوهره الفاخر

يقـــول مـــن تقـــرع أسماعـــه
كم تـــــرك الأول للآخـــــــر

متحدثا بنعم الله سبحانه غير مزهو ولا مُفاخِر.»

ثم يقول : .

« ولولا أن سألنيه زمرة، أرى لكل منهم علي مُطاعَ الإمرة، مع رجاء الثواب الجم من الله سبحانه في الآخرة، وتأميل المجازاة منه تعالى بالدرجات الفاخرة، ما كنت لأجول في هذا المجال، أو أتجلى على منصة المقال. (...) وحيث تم المقصود على الارادة المرجوة، وبرز بحمد الله تعالى ومعونته إلى الفعل من القوة، سميته : (موطئة الفصيح لموطأة الفصيح).

(...)

وسنلم ان شاء الله بالتعريف بالناظم آخرا عند تسميته نفسه، ونطلع في سماء هذا الكتاب بدره وشمسه. »

وقد أوردنا هذه النقول من المقدمة على طولها لأهميتها، فهي تقرر الأمور التالية :

1. أنه ألف الشرح تلبية لطلب زمرة من أصحابه أو تلاميذه.
2. أنه سما ه (موطئة الفصيح لموطأة الفصيح) وفي هذا العنوان ما يوحي بنوع عمله في الكتاب، فهو أراد أن يوطيء به لمن يريد النظر في نظم ابن المرحل والتعمق في مسائله.
3. أنه لم يسبق بشرح آخر لهذه المنظومة، ولذلك فهو عند نفسه كالمبتكر والمخترع لا المقلد.
4. أنه معتز بعمله فلا يراه مقصرا عن أعمال السابقين المتقدمين من العلماء رغم تأخر زمانه، أما

(48) النَّجْر كالنجار : الأصل، ونجر الخشب (القاموس).
(49) في (س) و (م) (سبقتي) وفي (ز) بياض، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(50) المقصود أنه سبق بالنظم.

الشرح في حد ذاته فقد ذكر من خصائصه أنه اشتمل على :

1. شرح الشواهد الواردة في النظم.
2. إضافة شواهد جديدة ونصوص أدبية وأخبار وحكم وأمثال على سبيل التوسع والاحماض.
3. التعريف بالأعلام الواردة في النظم بذكر أخبار وأحوال من يتعرض له ابن المرحل (51).
4. تحقيق القول في المسائل اللغوية، وتحرير القضايا المشكلة وتقرير رأيه فيها من غير تقليد ولا تبعية لأحد بعينه.

هذه هي أهم النواحي التي رأى ابن الطيب أنها تميز شرحه هذا. ونحن يمكن أن نفكك بناء هذا الكتاب الى وحدات تترابط فيما بينها وتنتظم على النحو التالي :

1. فالكتاب في جملته يمكن اعتباره بنية كبرى أو نصا كبيرا له عنوانه الخاص وهو (موطئة الفصيح لموطأة الفصيح) وداخل هذا البناء الكبير تنتظم مجموعة بنى صغيرة، فبنى أصغر منه.

2. والنص الكبير (أو النص في جملته) يتكون أساسا من ثلاثين بابا — حسب تبويب كتاب ثعلب وتبويب منظومة ابن المرحل — أي أنه يتألف من ثلاثين شرحا أو ثلاثين نصا، كل نص له عنوانه الخاص : (باب فعلت بفتح العين) — (باب فعلت بكسر العين) — (باب فعلت بغير ألف)... الخ. وكل نص أو شرح منها يمكن اعتباره اذن بنية متوسطة.

3. وابن الطيب لم يشرح كل باب جملة واحدة، ولكنه يجزئه إلى نصوص صغيرة، فيأخذ كل بيت أو كل مجموعة من الأبيات ترتبط فيما بينها بفكرة و قضية لغوية معينة، ويشرحها على حدة. ومنها ينتقل إلى البيت أو إلى مجموعة الأبيات التالية، فيكون إذن قد جزأ الباب الواحد إلى نصوص صغيرة كل واحد منها له بداية ونهاية ووحدة موضوعية، بحيث يمكن لكل منها أن يأخذ عنوانا جزئيا مستقلا. ويمكن هذه الوحدة الصغيرة، بنية صغيرة.

4. ثم إنه يأخذ في النهاية كل وحدة من هذه الوحدات الصغيرة (أي كل نص صغير مكون من بيت أو مجموعة أبيات) فيحلله إلى مستويات ثلاثة حسب الترتيب التالي :

أ. المستوى النحوي والصرفي.
ب. المستوى المعجمي والدلالي.
ج. المستوى البلاغي والعروضي.

فهو يبدأ شرحه بالمستوى الأول فيحلل النص الصغير (البيت أو مجموعة الأبيات) تحليلا نحويا صرفيا اشتقاقيا. ثم ينتقل إلى المستوى الثاني من التحليل فيفسر معاني الألفاظ، ويتعرض لخلافات اللغويين وآرائهم، ويناقشهم مستعينا بطائفة من الشواهد المتنوعة، ثم يختم بالمستوى الثالث فيذكر النواحي البلاغية والعروضية في شيء شديد من الاختصار والايجاز.

وإذا كان شرح ابن الطيب في جملته يقسم إلى هذه المجموعة من الشروح الجزئية، فإن هناك خيطا رفيعا يجمع بين هذه الأجزاء كلها — وهو أهم شيء في الكتاب — وهذا الربط هو البحث في مشكلة المستوى الصوابي للفظ العربي. وهذه النقطة الجوهرية في عمل ابن الطيب هي التي سنناقشها في الباب التالي.

(51) من الذين عرف بهم من الشعراء : العرجي (72/2 س) — السموأل (274/2 س) — عمران بن حطان 322/2 س — حميد بن ثور 479/2 س — رؤبة 481/2 س — ومن اللغويين : ثعلب : 695م — الزجاج 7س — الفراء : 511/2 س — ابن الأعرابي : 527/2 — معمر بن المثنى : 482/2. وعرف بكثير غيرهم.

شخصية مؤلفه :

في (موطئة) ابن الطيب جانب في غاية من الأهمية وهو الحضور البارز لشخصية المؤلف العلمية. وهذا شيء لا يلحظ في هذا الكتاب دون غيره من كتبه الأخرى، بل هو أمر مشاهد في غير ما كتاب من مؤلفاته التي وصلت إلينا. فثقة الرجل بعلمه ونفسه جعلته لا يكتفي بنقل الآراء وتأليف بعضها إلى جانب بعض على ما يفعله المقلدون من أهل زمانه، وإنما ينقل ما سلمه نظره وعلمه لما أورده ثم عقب عليه، ودخل في مناقشات مع صاحبه مما جعل كتابه هذا ميدانا تجول فيه أفراس النظر وتتبارى في ساحته الآراء على اختلافها، وجعل قارئه يحس بالمتعة العلمية وهو يتتبع ما يدور أمامه، ويقتنع أن ابن الطيب حين وصف نفسه في المقدمة — على نحو ما مر — بأن أنشد :

« ولست بامعـــة في الرجـــال
أسائـــل هـــذا وذا مـــا الخبر

ولكن أدور مع الحق حيث ما دار »، وحين قال : « ولم أكن ممن يشمله قول القائل :

يقولـــون أقـــوالا ولا يعلمـــونها
ولـــو قيـــل هاتـــوا حققـــوا» (52)

إنما كان قوله صادقا ووصفه لنفسه وصفا على الحقيقة. فالرجل لم يكن يترك أحدا من علماء اللغة الذين ترد أقوالهم في موضوع من الموضوعات التي يتطرق إليها إلا وناقشه وجال معه في حلبة علمه، منتقدا ومعقبا أحيانا، وساخرا ضاحكا أحيانا أخرى. ولم يكن يمنعه من الملاحقة والمماحكة أن الواحد من هؤلاء اسم من الأسماء الشهيرة التي أطبق الجميع على احترامها وتقديرها. بل كان من الفئة التي لا تسلم بصحة علم العالم لمجرد تقدم زمانه، ولا تهتضم المتأخر في حقيرة أو جليلة كما قال.

وهكذا وجدناه في (الموطئة) لا يفرغ من مناقشة واحد من هؤلاء المتقدمين المشهورين إلا ليدخل في مناقشة غيره، فلم يسلم من نقده وتعقيباته لا ثعلب ولا الأصمعي ولا أبو زيد الأنصاري ولا قطرب ولا ابن السكيت ولا الهروي، ولا ابن جني، ولا المرزوقي، ولا ابن هشام، ولا الجوهري، ولا المجد الفيروزبادي، ولا الفيومي ولا سواهم من علماء اللغة الذين تتردد أسماؤهم.

وليست من غايات بحثنا هذا أن نتتبع آراء ابن الطيب في كل مسألة مسألة من القضايا العديدة التي ناقش فيها هؤلاء العلماء، فذلك أمر يطول لو أردنا الوقوف عنده. على أننا سنرى أمثلة منه في الباب التالي. ونكتفي في هذا الباب بذكر مثالين متنوعين ولا نهدف بهما سوى توضيح هذا الجانب البارز من شخصيته العلمية ومنهجه في هذا الكتاب.

المثال الأول : قال ابن المرحل في (باب فعلت بفتح العين) :

وقـد غـلت قـدرُك فهـي تـغلي
وقـد غَـثت نـفسك فهـي تغثـي

فقال ابن الطيب في شرحه :

« يقال : غلت القدر بفتح الغين المعجمة واللام تغلي كرَمَى غليا بالفتح وغليانا بالتحريك. هذه اللغة الفصحى وعليها اقتصر جماعة من المحققين ومنهم صاحب (القاموس) وابنا القوطية والقطاع وبها ورد القرآن في قوله : (يغلي في البطون) (53)—

(52) البيت نسبه العاملي في (الخلاة) ص 1 إلى ابنة أنس بن إياس، وفيه : (يقولون أقوالا ولا يعرفونها).
(53) الدخان : الآية 45 وتمامها : (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم، كالمهل يغلي في البطون). وقد صحفت في الأصل إلى : (تغلي بطونهم).

وحكى شارح الأصل : [54] غلي كرضي، وأنشد عليها قول أبي الأسود :

ولا أقول لقدر القوم قد غَلـيت
ولا أقـول لبـاب الـدار مغلـوق

وقال في المصباح بعد أن ذكر (غلى) وقال إنها الفصحى : (وفي لغة قليلة : غلي من باب تعب. قال:

ولا أقـول لقـدر القـوم قد غليت

البيت).

فاستدل بالبيت كشارح الأصل لكون هذه اللغة قليلة. وقد ذكره الجوهري في صحاحه شاهدا على رد هذه اللغة ونفيها وكونها ليست لغة أصلا، وإنما هي لحن لأنه قال : غلت القدر تغلي، ولا يقال غليت. قال أبو الأسود الدؤلي :

ولا أقول لقدر القوم... الخ

أي فصيح لا يلحن.

قلت : ولا خفاء أنه يصلح شاهدا لكل منهما. لأن قوله : (لا أقول) يحتمل أنه أراد أنه فصيح لا يلحن لعراقته في العربية كما قال الجوهري، فيكون أراد نفي هذه اللغة وعدم إثباتها، ويحتمل أنه أراد لا ينطق إلا بالفصيح والأفصح لمهارته ومعرفته بألسنة العرب ولا يتكلم باللغة القليلة أو الرديئة ونحو ذلك. وهذا أقرب للفصاحة وأنسب باظهار الاقتدار على التعبير بما يشاء. هذا إذا حملنا كلام أبي الأسود على أنه أراد الألفاظ دون معانيها.

ويحتمل عندي أنه أراد مدلول هذه الألفاظ، وأنه أشار إلى أنه عالي الهمة رفيع القدر مصروف الوجهة إلى الأمور التي تعنيه، وليس هو ممن همته في بطنه كالطفيليين الذين تكون جل أحاديثهم على أنواع المآكل وأجناس المطاعم، وأنه لعلو همته، ونباهة قدره، ورفعة شأنه، وشرف نفسه ممن لا يقف في أبواب الناس ولا يتحلق على أفنية الأغنياء ولا يتذلل لهم رغبة في دنياهم. وهذا هو المناسب لهمم العرب وشيم ما تحلوا به من الأدب. وأما كونه لا يقول : (غليت) بل (غلت) ولا يقول (مغلوق) بل (مغلق) فهو وان كانت تحته جدوى فليست من المعاني التي تعتبرها الأعراب، ويلتفت إليها أهل الأدب » [55].

فها أنت ذا تراه بعد أن استعرض أقوال وآراء العلماء المختلفة، ينفرد بشق طريق خاصة به بين تلك الطرق والمذاهب، ويوجه بيت أبي الأسود توجيها طريفا جديدا اقتضاه نظره وتأمله.

المثال الثاني : أن محمد بن المستنير المعروف بقطرب (ت 206 هـ) ألـف كتابـا سماه (المثلثات) [56] يعتبر أول كتاب في موضوعه. وقد جمع فيه طائفة قليلة [57] من الألفاظ التي تشترك في الخصائص التالية :

ـــ الوزن الصرفي الواحد.

(54) يقصد المرزوقي في شرحه لفصيح ثعلب.
(55) الموطئة : 747/1 ـــ 748 م.
(56) طبع كتاب قطرب بتحقيق الدكتور رضا السويسي بالدار العربية للكتاب (ليبيا ـــ تونس) سنة 1978.
(57) بلغ عدد المثلثات الواردة في كتاب قطرب الذي نشره السويسي (انظر الهامش السابق) 32 مثلثة. وقد نظمها أبو القاسم عبد الوهاب بن الحسين الوراق المهلبي البهنسي (ت 685 هـ) في الأرجوزة الشهيرة التي أولها :

يامولعا بالغضب والهجر والتجنب
في جده واللعب حبك قد سرح بي

(وقد أعاد نشرها الأستاذ عبد الله كنون بالعدد الثالث من مجلة المناهل سنة 1975)، فكان عدد مثلثاتها ثلاثين (30) فقط. وحين شرح عبد العزيز المغربي(ت 964 هـ) منظومة البهنسي في نظم آخر سماه «المورث لمشكل المثلث» (مطبوع بفاس سنة 1317 هـ في مجموع المتون الكبير)

ـــ العدد الثابت من الحروف.

ـــ الترتيب الثابت بين هذه الحروف.

وتختلف فيما بينها في المعنى وفي حركة فاء الكلمة. مثال ذلك :

الغَمْر : (بالفتح) الماء الكثير.

الغِمر : (بالكسر) الحقد في الصدر.

الغُمْر : (بالضم) الذي لم يجرب الأمور، الضعيف في حالاته.

ولكن الذين جاؤوا بعده (58) صاروا يستدركون عليه أشياء جديدة، ويضيفون الى لائحته الأولى الفاظا كثيرة حتى بلغ ذلك ذروته عند أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي (ت 521 هـ) (59) الذي جمع من المثلثات قدرا بلغ ثلاثا وثلاثين وثمان مئة (833) مثلثة موزعة على نوعين : 1. المثلثات المتفقة المعنى. 2. المثلثات المختلفة المعنى. وعدد ما جمعه من النوع الثاني وحده ـــ وهو الذي اقتصر عليه قطرب ـــ خمس وتسعون وست مئة (695) مثلثة، وهنا يجب أن نذكر ابن الطيب الشرقي لأنه ملأ كتاب (الموطئة) حديثا عن تقصير قطرب واهماله لعدد كبير من الألفاظ المثلثة، مستفيدا مما كتبه العلماء في الموضوع ولا سيما كتاب البطليوسي. والحق أنه لم ينبه على قطرب وحده، بل نبه على غيره أيضا ممن كان يسميهم « أصحاب المثلثات ». ونبه على البطليوسي بدوره ولكن في مواضع قليلة. ولا يسمح مجال بحثنا أن نستعرض كل الألفاظ التي استدركها ابن الطيب، وإنما نعطي بعض الأمثلة.

ففي (باب المكسور أوله والمفتوح باختلاف المعنى) استدرك مثلثات الألفاظ التالية (60) :
الخيط ـــ الحبر ـــ القسم ـــ الصدق ـــ السرب ـــ الجزع ـــ الحمل ـــ القرن ـــ الشكل ـــ الفل ـــ النعمة ـــ الجنة ـــ البضع ـــ الثغال (61).

وفي (باب المضموم أوله) استدرك : (اللعبة ـــ القلفة) (62) وكلاهما بتثليث الفاء مع اختلاف المعنى.

وفي (باب المضموم أوله والمفتوح باختلاف المعنى) استدرك (الأكلة ـــ الموتة ـــ الخلة)(63).

وفي (باب المكسور أوله والمضموم باختلاف المعنى) استدرك : (الثلث ـــ الربع ـــ الخمس ـــ السدس ـــ السبع ـــ الثمن ـــ التسع ـــ العشر ـــ الخلف) (65).

وهو الذي أوله :

حمدا لباريء الأنام ثم الصلاة والسلام
ما ناح في دوح حمام على الرسول العربي

وجدنا هذه المثلثات قد وصلت إلى سبع وثلاثين. وقد ذكر الزميل الصديق الدكتور صلاح الفرطوسي في مقدمة تحقيق مثلث البطليوسي (97/1) أن مثلثات قطرب التي اطلع عليها بلغت ثلاثا ومئة مثلثة. والمسألة تحتاج إلى بحث مستفيض.

(58) انظر قائمة المؤلفين في المثلثات في ص 48 من الجزء الأول من (المثلث لابن السيد البطليوسي) تحقيق ودراسة الدكتور صلاح الفرطوسي. بغداد ـــ 1981.

(59) حقق كتابه الدكتور الفرطوسي (انظر الهامش السابق).

(60) كل هذه الألفاظ المستدركة مثلثة الفاء فهي بالفتح والكسر والضم مع اختلاف المعنى.

(61) انظر الموطئة على الترتيب : ج 120/2 ـــ 122 ـــ 122 ـــ 123 ـــ 128 ـــ 132 ـــ 136 ـــ 142 ـــ 144 ـــ 144 ـــ 151 ـــ 154.

(62) نفسه : ج 161/2 ـــ 163.

(63) نفسه : ج 200/2 ـــ 205 ـــ 207.

(64) ذكر ابن الطيب اقتداء بابن المرحل في منظومته أن الألفاظ من (الثلث إلى العشر) كلها مثلثة الفاء باختلاف المعنى. فهي بالفتح مصادر وأسماء العدد وبالكسر : الأظماء وهي جمع ظِمء وهو ما بين الشربتين. وذلك بأن تحبس الابل عن الورود إلى غاية العدد. فالخمس أن تحبس إلى اليوم الخامس والتسع إلى التاسع وهكذا. وأما بالضم فتكون بمعنى الجزء من العدد . وقد ذكر البطليوسي الألفاظ من الربع إلى العشر ولم يذكر الثلث.

(65) انظر الموطئة على الترتيب : ج 221/2 ـــ 222.

فكل هذه المثلثات مستدركة على قطرب وغيره. وضمنها أربع مثلثات لم ترد عند البطليوسي وهي : (الفل ــ اللعبة ــ القلفة ــ الثلث). وقد ترد مثلثة عند البطليوسي ولكن بمعان مختلفة عما يذكره ابن الطيب، مثال ذلك مثلثة (الثفال) (66).

فمن هذين المثالين يستطيع المرء أن يتبين مدى حرص ابن الطيب على اثبات شخصيته العلمية وحضورها القوي في شرحه، وهذا ما سوف يزداد وضوحا وتأكدا عند دراستنا للموضوع الذي نعتبره أهم ما يمكن بحثه في هذا الكتاب وهو قضية اللفظ ومستواه الصوابي.

كلمة عن مصادره :

تتميز كتابات ابن الطيب ــ في جملة ما تتميز به ــ بكثرة ما يتردد فيها من أسماء الكتب على اختلافها وأسماء المؤلفين على تنوعهم، وهذا يعكس ثقافة الرجل المشاركة ومحاولته استغلال أكبر قدر ممكن من هذه الثقافة في كل موضوع يتناوله. وما كتاب (الموطئة) سوى نموذج من هذه الكتابات. ويصعب علينا أن نضع لائحة إحصائية نهائية بأسماء المصادر والمراجع التي تخللت هذا الكتاب نظرا لحاله التي هو عليها الآن من كونه مخطوطا كبيرا لم يطبع بعد، ولكننا نستطيع أن نقدم لمحة موجزة عنها اعتمادا على ما استفدناه من قراءتنا فنقول :

اعتمد ابن الطيب في شرحه لمنظومة ابن المرحل بالدرجة الأولى على مجموعة من كتب التصويب اللغوي وبعض شروح (الفصيح) ونذكر منها : اصلاح المنطق لابن السكيت ــ تصحيح الفصيح لابن درستويه ــ أدب الكاتب لابن قتيبة ــ درة الخواص للحريري ــ ما تلحن فيه العلامة للجواليقي.

ــ المدخل إلى تقويم اللسان لابن هشام ــ شرح الفصيح له. أما شرح المرزوقي (أحمد بن محمد ت 421 هـ) لفصيح ثعلب (67) فكان أهم مصادره في هذا النوع من الكتب. وكان في غالب الأحيان يشير إليه ب (شرح الأصل) وإلى صاحبه ب (شارح الأصل).

ومن نوادر هذا النوع (كتاب ابن حمزة) (أبي الهيذام كلاب بن حمزة العقيلي ت (207 هـ)، وهو أحيانا يصحف إلى (كتاب ابن جمرة) (68). وهذا الكتاب يسمى في المصادر التي تعرضت له كتاب (ما تلحن فيه العامة)، ويعد اليوم من الكتب المفقودة (69).

وتأتي بعد ذلك في الدرجة الثانية من حيث الأهمية قواميس اللغة العامة وشروحها التي نذكر منها:
القاموس المحيط ــ الصحاح ــ المصباح ــ المحكم ــ العباب ــ مختصر الزبيدي ــ كفاية ابن الأجدابي ــ التهذيب للأزهري ــ الجمهرة لابن دريد ــ مجمل ابن فارس ــ أساس البلاغة للزمخشري ــ المنجد لكراع ــ حواشي ابن بري ــ شرح خطبة القاموس للمناوي... الخ.

ومن كتب اللغة والمفردات الأخرى نجد :
مفردات الراغب ــ الغريبين للهروي ــ المشارق لعياض ــ النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ــ الفائق للزمخشري ــ النبات لأبي حنيفة ــ شفاء

(66) عند البطليوسي (389/1) : الثفال بالفتح : المرأة العظيمة الكفل الثقيلة عن التصرف، وبالكسر : الأشياء الرزينة والبضم : لغة في الثقيل، وهي عند ابن الطيب : الثفال : بالفتح : البطيء من كل شيء، وبالكسر : ما يوضع تحت الرحى من جلد ونحوه. وبالضم : الحجر الأسفل من الرحى.
(67) منه نسخة مخطوطة ذكرها بروكلمان : 211/2 وقال انها في كوبريلي رقم : 1323.
(68) انظر على سبيل المثال : الموطئة : 67/1 م.
(69) انظر : لحن العامة والتطور اللغوي : ص : 78.

الغليل للخفاجي ــ الأضداد لابن الأنباري ــ المقصور والممدود له ــ فعلت وأفعلت لقطرب ــ أفعال السرقسطي ــ أفعال ابن القطاع ــ أفعال ابن القوطية ــ أفعل من كذا للقالي ــ مثلث قطرب ــ مثلث البطليوسي ــ مثلثات ابن مالك ــ الخصائص لابن جني ــ فقه اللغة للثعالبي ــ الصاحبي لابن فارس ــ المزهر للسيوطي ــ نوادر أبي زيد ــ نوادر القالي ــ أمالي ثعلب... الخ.

ومن مصادره اللغوية النادرة : (خلاصة المحكم) وهو كتاب يتردد بكثرة في هذا الشرح كما في شرح القاموس دون أن يعزى لمؤلفه، ومعلوم أن لمحكم ابن سيده الأندلسي عددا من التلخيصات [70] لعدد من الأشخاص وكلها مفقودة، ولا ندري أيها كان مرجع ابن الطيب.

ومنها كتاب (المستدرك في اللغة) للزبيدي، وهو من النوادر، إذ لا توجد منه في أيامنا هذه سوى نسخة فريدة يصعب الاعتماد عليها محفوظة بخزانة القرويين [71].

ومنها (شرح غريب ابن الحاجب) لابن عبد السلام (محمد بن عبد السلام الأموي المكي من القرن السابع). هكذا يسميه ابن الطيب. وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية بعنوان (لغات مختصر ابن الحاجب) [72].

ومنها (شرح ألفاظ المهذب) لاسماعيل بن هبة الله الموصلي (المعروف بابن باطيش) من القرن السابع. وهو شرح لغريب ألفاظ (المهذب في الفروع) لأبي اسحاق ابراهيم بن محمد الشيرازي الشافعي (ت 476 هـ) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون [73]. وابن الطيب ينقل عن شرح هبة الله في مواضع متفرقة.

ومنها (غريب البخاري) للقزاز. هكذا يذكره ابن الطيب [74]. وإذا كان القزاز المقصود هو أبو عبد الله محمد بن جعفر القيرواني صاحب (الجامع في اللغة) (ت 412 هـ)، فنحن لا نعلم له تأليفا في الموضوع حسب مترجميه [75].

ومن مصادره التي يكثر النقل منها في هذا الشرح ــ كما في شرحه للحاشية ــ (الجامع في اللغة) لأبي عبد الله القزاز المذكور وهو كتاب يعد اليوم مفقودا.

ومنها (كتاب الفرق) لأبي زيد (سعيد بن أوس الأنصاري) (ت 215 هـ). وقد ذكره ابن النديم في ترجمته.

ومنها كتاب (الغرائب) لابن رشيق القيرواني. وقد ذكره حاجي خليفة [76]. ولعله هو كتاب (الشذوذ في اللغة) الذي أشار إليه السيوطي في الوعاة [77] وقال عنه : « والشذوذ في اللغة يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في بابها ».

ــ أما كتب النحو والصرف فنذكر منها :

كتب ابن مالك كالألفية وشروحها وحواشيها التي منها حواشي الأزهري والشنواني ويس، والكافية، والتسهيل بشروحه (كشرح ابن هشام)،

(70) انظر (المعجم العربي بالأندلس) لكاتبه : ص 57.
(71) رقم هذه النسخة القروية 64. وانظر ما كتبناه حولها في (المعجم العربي بالأندلس) ص 51 وما بعدها.
(72) انظر (المعجم العربي) للدكتور حسين نصار : 66/1.
(73) انظر كشف الظنون : 1912/2.
(74) انظر على سبيل المثال : الموطئة في : 187 م.
(75) يراجع بصفة خاصة كتاب : (القزاز القيرواني ــ حياته وآثاره) للمنجي الكعبي ــ تونس 1968.
(76) كشف الظنون : 1444/2.
(77) بغية الوعاة : 504/1.

ولامية الأفعال بشروحها (كشرح المكلاتي).

ومن كتب ابن هشام : التوضيح، والمغني بشروحه التي منها شرح الدماميني، وقطر الندى، وغيرها.

ومنها : الارتشاف لأبي حيان، والمقرب لابن عصفور، وشرح الرضي للكافية الحاجبية، والاقتراح للسيوطي، ونتائج الفكر للسهيلي (في علل النحو) [78] والكتاب لسيبويه مع بعض شروحه وخاصة شرح الصفار (قاسم بن علي البطليوسي، من القرن السابع) وشرح ابن أبي الربيع السبتي المغربي.

ومن نوادر هذا النوع كتاب لابن الحاج (أحمد بن محمد الأزدي الاشبيلي ت 647 هـ) على المقرب لابن عصفور يسميه ابن الطيب : (شرح المقرب لابن الحاج) وعند السيوطي [79] أن لابن الحاج المذكور « ايرادات على المقرب ».

ومن كتب البلاغة والعروض : نذكر : مختصر السعد، وشرح الخزرجية للزموري (المغربي) سوى كتب أخرى عديدة.

ومن كتب الأدب المختلفة نذكر : الكامل للمبرد ـــ العقد لابن عبد ربه ـــ نقد الشعر لقدامة ـــ العمدة لابن رشيق ـــ مقامات الحريري ـــ وشرحها للشريشي ـــ الروض الأنف للسهيلي ـــ نفح الطيب للمقري.

ومن الأشعار نذكر : شرح الحماسة للمرزوقي ـــ أشعار النابغة وزهير وحسان، وشرح السقط، واللامية للطغرائي وشرح الكعبية لابن هشام وشرح الهمزية لابن حجر وبعض شروح رسالة ابن زيدون.

ومن مراجعه الأدبية المغربية نذكر على الخصوص كتاب أبي علي اليوسي المسمى : (زهر الأكم في الأمثال والحكم) [80] وشرح شواهد البخاري لابن غازي وهو من النوادر.

بعد هذه الطائفة من المصادر والمراجع تأتي في المرتبة الثالثة من الأهمية الكتب الدينية من تفاسير ومجاميع الحديث ودواوين الأصول وفروع الفقه، وكتب المعارف العامة من طب وتاريخ ورحلات وفهارس وغيرها.

* * *

ذلك هو كتاب (الموطئة) في اطاره التاريخي، وفي موضوعه وبنيته ومنهجه ومخطوطاته ومصادره وشخصية مؤلفه من خلاله، وهي أمور كان من الضروري أن نلم بها قبل الخوض في قضية المستوى الصوابي، وهي القضية الأساس في هذا الكتاب، وهي موضوعه الحيوي.

(78) كشف الظنون : 1924/2.
(79) بغية الوعاة : 359/1.
(80) طبعه محققا الدكتور محمد حجي والدكتور محمد الأخضر في ثلاثة مجلدات (الدار البيضاء ـــ 1981).